كيفية صياغة الخطبة وأسلوبها الخطابي

أصول الدعوة

إعداد أ/ محمد الجوهري
قسم الدعوة وأصول الدين
كلية العلوم الإسلامية – جامعة المدينة العالمية
شاه علم - ماليزيا
waleed.eltantawy@mediu.edu.my

خلاصة—هذا البحث يبحث في كيفية صياغة الخطبة وأسلوبها الخطابي.

الكلمات الافتتاحية: الصياغة،الأسلوب، الخطابة.

I. *المقدمة*

الحمد لله والصّلاة والسّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أمّا بعد أخي الطَّالب، سلامٌ من الله عليكَ ورحمةٌ منه وبركات، ومرحباً بك في سلسلة الدُّروس المقرَّرة عليك في إطار مادَّة أصول الدعوة ، لهذا الفصل الدِّراسيّ ، آملينَ أن تجدَ فيها كلّ المُتعة والفائدة، وفي هذا الدرس نتعرف على كيفية صياغة الخطبة وأسلوبها الخطابي.

II. موضوع المقالة

كيفية صياغة الخطبة وأسلوبها الخطابي:
١ ـ خصائص الأسلوب الخطابي:
ونأتي الآن عن خصائص الأسلوب الخطابي:
أولًا: الإطناب: يتسم الأسلوب الخطابي بالإطناب، وإذا كان الإطناب غير محمود في الأسلوب الكتابي أو العلمي، فإنه محمود في الأسلوب الخطابي، وهو ضروريٌّ في الخطابة السياسية والقضائية والحفلية، ولكنه غير مستطاع في الخطابة الحربية؛ لأنها كلمات محمسة تلقى في الميدان قبيل المعركة، فظروفها تحتم الإيجاز، وقد يضطر الخطيب الديني إلى الإيجاز؛ مراعاة لحالة الجماعة والزمن؛ كأن يكون المسجد غاصًّا بالمصلين في يومٍ قائظ، أو يكون المصلون من ذوي الأعمال العاجلة، وقد تركوها ريثما يصلون، ولكن هذا لا ينفي أن من خصائص الأسلوب الخطابي الإطناب؛ لأن الإيجاز إنما تقتضيه ظروف وأحوال.
فعلى الخطيب أن يراعي المقام، وما يقتضيه من إيجاز أو إطناب، فإن استدعى إطنابًا وتفصيلًا أطنب، وإن تطلب تقصيرًا أوجز على أن يطيل في غير خطلٍ ولا إملالٍ، ويوجز في غير تعمية ولا إخلال، وقديمًا كان للعرب خطب طوال، وخطب قصار.
يقول الجاحظ: ثم اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المُدَرِ والوبر والبدو والحضر على دربين:
منها الطوال، ومنها القصار، ولكل مكان يليق به، وموضع يَحْسُنُ فيه ولكن على الخطيب المطنب أن يكون دائمَ السيطرة على الجمهور؛ لأنه لا يأمن ملالهم، وإن نسَّقَ عباراته، ونضد معانيه، وأبدع في تصويره بتشويقه ومفاجآته، وحسن إلقائه، فإن أحس منهم فتورًا ألهب عواطفهم، أو أوجز.
قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: "حدث الناس ما حدجوك بأسماعهم ولاحظوك بأبصارهم، فإذا رأيتم منهم فترة فأمسك "، وكان مُطَرِّفُ بن عبد الله يقول : "لا تطعم طعامك من لا يشتهيه" يريد ألا تقبل بحديثك على ما لا يقبل عليك.
أما وسائل الإطناب فمنها:
أولًا: من وسائل الإطناب التكرار المعنوي، وهو التعبير عن المعني الواحد بطرق مختلفة؛ ليتضح ويقوى تأثيره، ولا عيب في هذا التكرار المعنوي إذا ما تغيرت عباراته، مثل قول الحجاج: أيها الناس من أعياه داؤه فعندي دواؤه، ومن استطال أجله فعلي أن أعجله، ومن ثقل عليه رأسه، وضعت عنه ثقله، ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه.
فهي كلها بمعني واحد، ولكن التعبير مختلف، فكأن لكل جملة معنيً جديدًا وتهديدًا ووعيدًا؛ ولهذا أخالف الجاحظ في إيثاره الإيجاز في الخطب، إذ يقول : ووجدنا عدد القصار أكثر، ورواة العلم إلى حفظها أسرع.
وروي أن ابن السماك جعل يتكلم وجاريةٌ له تسمع فلما انصرف إليها قال لها : كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه، لو أنك تكثر ترداده قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه، قالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه قد مله من فهمه؛ لأن التكرار نوعٌ من الإيحاء ولا بد منه في الخطابة.

ثانيًا: ومن وسائل الإطناب أيضًا : التفصيل والشرح وتوليد المعاني؛ ليعمق الخطيب أثر الخطبة في نفوس سامعيها.
ثانيًا: الوضوح:
يتسم الأسلوب الخطابي بسهولة العبارة، ووضوح المعني؛ لأن فهم المعاني أساس الإقناع والاستمالة، ولا أعني أن يكون الكلام مبتذلًا سوقيًّا وشائعًا شعبيًّا، وإنما أريد أن يكون سهلًا في قوة، وساميًا في وضوح وسهولة، يفهمه أنصاف المتعلمين، ولكنهم يعجزون عن الإتيان بمثله، أريد أن يوافق السامعين ويلائم الزمان ويشاكل البيئة، ويوائم الموضوع، وينبئ عن مقدرة الخطيب البيانية والخطيب البارع من خطب في العامة وأنصاف المتعلمين؛ فرفعهم إليه ولم يهبط هو إليهم، ومن الخطأ أن يغرب الخطيب في أسلوبه ويتسامى بتعبيره تساميًا يغلق معانيه على السامعين.
ومما يحبب السهولة إلى الخطباء أن الكلمات السهلة أحفل في كثير من الأحيان بالشعور والعاطفة من الكلمات الغريبة، التي لا تحصل إلا بالمطالعة والمدارسة، فمثلًا : كلمة حربٍ أو غارة، أو جوع، تثير ما لا تثيره كلمة وغى أو سغب، وكلمة زوجة أقوى تأثيرًا من كلمة حنًّا أو طلَّه، إلى آخره.
والجنوح إلى السهولة لا ينافي قوة العبارة ودقتها، وذلك كقول الحجاج في خطبته بالبصرة: أيها الناس من أعياه دائه فعندي دواؤه ومن استطال أجله فعلي أن أعجله ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه، إن للشيطان طيفًا، وللسلطان سيفًا.
فالأسلوب هنا واضح المفردات والمعاني، وجيدٌ غاية الجودة، ووافٍ بالغرض الذي يريده الخطيب وهو التهديد والترهيب.
أما وسائل الوضوح فهي:
أولًا: أن يكون الخطيب قد درس موضوعه وفهمه فهمًا عميقًا دقيقًا ؛ لأنه إذًا يستطيع أن يعبر عنه تعبيرًا جليًّا مفهومًا؛ فيتجنب الغموض والإبهام والتعبير المحتمل لمعنيين.
ولا شك أن الغموض في الأسلوب مرده إلى أحد أمرين : إما إلى غموض المعنى في ذهن الخطيب، وإما إلى عجزه عن الإفصاح عما بذهنه وكلاهما عيب.
أما الوسيلة الثانية من وسائل الوضوح : فهي اختيار الكلمات التي تناسب الموضوع والسامعين، بحيث تدل على معانيها في يسر وسهولة ودقة، وتنفذ إلى الذهن والقلب، كما رأينا في خطبة الإمام علي والحجاج، وزياد.
ثالثًا: حسن عرض الجمل، وتأليفها؛ لتفصح العبارة عن المعني الذي يقصد إليه الخطيب، فيقدم أو يؤخر، ويذكر أو يحذف، ويؤكد أو لا يؤكد، ويفصل أو يَصِلِ إلى آخره، وذلك ليكون معناه واضحًا دقيقًا، وعدة الخطيب في ذلك أن يلتزم القواعد النحوية والبلاغية، والذوق الأدبي.
رابعًا: ترتيب الموضوع ترتيبًا منطقيًّا، فالمقدمات تسلم إلى النتائج والمعاني الأساسية قبل المعاني الفرعية، والمعاني كلها مترابطة متماسكة، لا فجواتٍ بينها تقطع أفكار السامعين.
خامسًا: ولا بد في الخطب العامة من البعد عن المصطلحات الخاصة بالعلوم والفنون؛ لأنها مجهولة للسامعين؛ ولأنها لا تلائم الموضوع؛ لهذا عابوا على بعض الخطباء من علماء الكلام، أنهم استعملوا في خطابتهم بعض مصطلحاتهم، وخطب بعضهم فقال: إن الله عز وجل بعد أن أنشأ الخلق وسواهم ومكن لهم؛ لاشاهم فتلاشوا؛ فضحك الناس منه.
ثالثًا: إثارة الشعور:
ونبدأ بالحديث عن قيمة الإثارة . الأسلوب الخطابي في حاجة إلى إثارة الشعور؛ لأن الوضوح وحده لا يكفي، ذلك أن الوضوح يكفل الإقناع، أما قوة الأسلوب : فتكفل الاستمالة، وتوجيه السامعين إلى الهدف الذي يقصده الخطيب، وهذه القوة هي التي تمزج مشاعر السامعين، بمشاعر الخطيب؛ لذلك قال دلامير : إن الذي يكتفي بالإقناع دون التحميس متكلم لا بليغ.
وقال رفالور: إن الأهواء والعواطف هي الخطيب في الجماهير، أما وسائل الإثارة فنقول : كيف يثير الخطيب المشاعر؟

أولًا: يثيرها بقوة عاطفته وحماسته إلى دعوته؛ لأن الخطيب المنفعل الصادق العاطفة، الحار الشعور تلتهب كلماته، وتصل إلى القلوب عباراته، فسرعان ما تمتزج نفوس السامعين بنفسه، وتندفع إلى الوجهة التي يريدها، سمع حسن البصري خطيبًا يعظ ولكن قلب الحسن لم يرقَّ لخطبته، فقال له الحسن البصري : يا هذا إن بقلبك لشرًّا أو بقلبي.

ثانيًا: من وسائل الإثارة الخيال في العبارة، وذلك باختيار المفردات والعبارات التي تثير في النفوس أخيلة وذكريات، وتبعث صورًا وأفكارًا ملائمةً للموضوع تتداعى وتتوافد، وسبيل ذلك أن يتخير الخطيب العبارات المجازية كالاستعارة، والكناية، والتمثيل، ويجنح إلى التشبيه والتخيل والمبالغة المقبولة، وبهذا يكسب في عبارته قوة وحرارة؛ لأن الحياة تسري في العبارة على مقدار غناها بالمشاعر الحية، والعواطف المشبوبة، والصور الذهنية.

فقولنا مثلًا: أي ضلعٍ في المثلث أقصر من م جموع الضلعين الآخرين تعبير وجيز المبنى صحيح المعنى، دقيقُ الدلالة، ولكن ليس من الأدب في شيء؛ لأن معناه عقلي صرف، خالٍ من شعور القائل، فلا يثير شعور السامع والكلمة عند الشاعر والأديب بصفة عامة لا تفسر بالعقل وحده، ولكنها تفسر كذلك بالقلب والخيال، فإذا ما ترددت لفظة في ذهنه كانت لها آثار في قرارة نفسه؛ لأن معناها يسري فيه ويعيد إليه مناظر ماضيه وذكرياته، فيسترجع العواطف التي أثارتها هذه الكلمات في نفوس الناس، في شتى تجارب الحياة، الخطيب محتاج لخيال مشوق يصور عاطفته على شرط ألا يكثر منه، وألا يسوقه على غرار النواح حتى لا يسأم، والجماعة تتأثر بالصور كثيرًا، ومتى كان الخطيب حاذقًا بليغًا أسكر الجمع بتصويره فيثيره، أو يهدئه.

ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية الألفاظ والجمل؛ لأمكن أن يقام منها هرمٌ أرفع من هرم خيوبث القديم، وللألفاظ وظيفة مهمة في التعبير تتجاوز ما يقتصر ع ليه بعضها من نقل فكرة شخص، فكثير منها مشحون بصور غير الفكرة التي تنقلها فمثلًا : كلمة "أم" تدل على معنى مجرد لوالدة مجردة، فلا تهز شعور قارئ ولا سامع، ولكن إذا استخدمها إنسان في حياته الخاصة أحس لها في نفسه حياة، وشعر أنها تتدفق بعاطفة، وتذكر بالطفولة وملاع بها، وبحب الأم وعطفها فاللفظ رمزٌ إلى فكرة ومعنى، وتيار ذاخر بالمشاعر والصور التي اكتسبها من حياته الطويلة، وأحوال الذين نطقوا به.

ثالثًا: ومن وسائل الإثارة كذلك : اختيار الكلمات القوية النفاذة إلى القلوب في صدد الإثارة، أو التهديد، أو التحميس، ومن ذلك ما ج اء في خطبة الإمام علي لما علم أن النعمان بن بشير أغار من قبل معاوية على عين التمر، ودعا عليٌّ الناس أن ينهضوا إليه فتثاقلوا. فكان أن خطب الإمام عليٌّ فقال : "يا أهل الكوفة، كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم انجحر كل امرئ منكم في بيته، وأغلق بابه، ان جحار الضب في جحره، والضبع في وجارها، ماذا منيت به منكم عمي لا تبصرون، وبكم لا تنطقون، وصم لا تسمعون، إنا لله وإنا إليه راجعون".

فهو يحقرهم لأنهم يخافون من المنسر وهو عدد صغير من المحاربين ويزيدهم تحقيرًا بقوله "انجحر انجحار الضب والضبع " وذلك يدل على سرعة ا لفرار إلى المأوى، وعلى الرعب، وعلى حقارة الشأن.

رابعًا: إذا كان الخطيب يعمد إلى التأثير السريع، فإن الجمل القصار أنسب؛ لأنها سريعة الأداء، سريعة الفهم، متلاحقة الأثر، مثلها مثل الطرقات المتوالية على الحديد المحمى، تأثر فيه وتشكله، والمراد بالجمل القصار، أن تكون وسطًا بين القصر والطول؛ لأن العبارات الطويلة بطيئة التأثير مملة للسامع، مجهدة للخطيب في إلقائها، والعبارات القصيرة المفرطة في القصر متلاحقة مفاجئة، مجهدة للسامع في تتبعها.

من الجمل القصار، قول زياد في خطبته بالبصرة : " قربت القرابة، وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتغضون على المختلس، كل امرئ منكم يذب عن سفيهه، صنيع من لا يخاف عاقبة، أو لا يرجو ميعادًا، لقد أحدثتم أحداثًا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرق قومًا غرقناه، ومن أحرق قومًا أحرقناه، ومن نقب بيتًا نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبرًا دفناه حيًّ فيه".

خامسًا: والتشابه والتطبيق لهما أثر عظيم في إثارة الشعور؛ لأن التماثل والتضاد يشعر بالفارق، ويوضح المعنى، ويفسح المجال للخيال.

من التشابه: قول زياد في خطبته السابقة : وقد أحدثتم أحداثًا لم تكن ولقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرق قومًا غرقناه، ومن أح رق قومًا أحرقناه، ومن نقب بيتًا نقبنا عن قلبه ومن نبش قبرًا دفناه حيًّا فيه . ففي هذا التهديد مشاكلةٌ بين العقاب الجرم، وتخييل مفزع، وخاصة في تهديده بشق صدر اللص الذي ينقب البيوت، وبدفن لص المقابر حيًّا في المقبرة التي كان ينبشها.

ومن التطابق: قول الإمام علي، وقد أغار الضحاك بن قيس على الحيرة من قبل معاوية واستنجدهم الإمام عليٌّ فتقاعدوا، قال: "أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصم الصلاد، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء، تقولون في المجالي كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتم حيدي حياد " هنا تطابق بين اجتماع الأبدان وافتراق القلوب، وبين قوة كلامهم وضعف دفاعهم، وبين جرأتهم على الخوض فيما لا حق لهم فيه وجبنهم إذا جد الجد.

سادسًا: ومما يحقق للخطيب التأثير، وينفخ في أسلوبه حياةً متجددةً أن يراوح بين الإخبار والإنشاء؛ حتى لا يكون أسلوبه على وتيرة واحدة فيملُّ، وحتى يجدد نشاطه السامعين بهذه المغايرة، ويصور في دقة أحاسيسه، ومشاعره فإن المعاني المنوعة، والانفعالات المختلفة في حاجة إلى أساليب متغايرة؛ تفصح عنها، عليه أن يتخير الأسلوب الملائم للمعنى من خبرٍ وأمرٍ ونهيٍ واستفهامٍ وتعجبٍ ... إلى آخره؛ لأنه بذلك يحقق ما سبق، ويحقق شيئًا آخر هو أن هذه المغايرة في الأسلوب تستتبع مغايرة في نبرات الصوت، وطريقة الإلقاء، والوقفة والإشارة، وهذا كله عونٌ على الوضوح من ناحية، وعلى التأثير من ناحية أخرى.

من ذلك قول الإمام علي في خطبة له : " أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطمع في نصركم، ولا أوعد العدو بكم، ما بالكم ما دواءكم، ما طبكم؟ القوم رجالٌ أمثالكم، أقوالًا بغير علم، وغفلة من غير ورع، وطمعًا في غير حق، فهنا إخبار بتكذيبه لهم، ويأسه من نصرهم مع تعجب من حالهم، ثم زراية بهم، ثم تعجبٌ وإنكارٌ لقولهم بغير علم وطمعهم في غير حق.

ومن ذلك أيضًا قول أم الخير بن الحريش تحرض جند علي يوم صفين : صبرًا يا معشر المهاجرين والأنصار على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم، فكأني بكم غدًا وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرت من قسورة ، لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا واشتروا بالضلالة بالهدي، وعم قليل ليصبحن نادمي.

ومنه أيضًا قول مصطفى كامل يفاخر الإنجليز على الدوام أنهم أغنوا البلاد، وملئوها ذهبًا، فما قيمة الثروة التي يفاخرون بها بجانب الحرية الشخصية والحرية العامة ، وسيادة المصري في بلاده ، واستقلاله في وطنه؟ ومَن مِن المصريين لا يفضل أن يكون أفقر الناس جميعًا وحكومة بلاده قائمة على العدل الصحيح؟ على أن يكون أغناهم وأثراهم، وهو مهدد من المحتلين بعقوبات دنشواي، وإذا كان من المسلم به أن ارتفاع أثمان أراضي الزراعة تابع لثمن القطن، وأن هذا خاضع لطلبات العالم، ولحاجة الناس إلى القطن المصري بنوع خاص؛ ولقلة المحصول الأمريكي، وللمضاربة، فما أثر الإنجليز في هذه الثروة؟ إن الذي يفاخر بزيادة الثروة، وبوصول مالية الحكومة إلى مركز سامٍ يجب عليه قبل كل شيء أن يعدد الأعمال العامة، والمنافع المختلفة التي عادت على القطر من هذه الزيادة.

فهل يستطيع الإنجليز أن يدعو أنهم رقوا الفلاحين، ونشروا نور المعارف بينهم، وهم الذين سدوا أبواب المدارس في وجوههم؟ ما فائدة الأموال التي تجمع، والخزينة التي تملأ بالذهب الوهاج إذا كانت الأسوار قائمة بين الفقراء، والعلم والأحوال الصحية على أسوأ حال والعدل مزعزع الأرك ان، والمصري لا يملك في بلاده نفوذًا، ولا يسمع له صوت، والأمن مختل أي اختلال؟

رابعًا: الموسيقى:

من صفات الأسلوب الخطابي الرفيع، أن يكون موسيقيًّا رنانًا؛ ليكون خفيفًا على اللسان، حسن الوقع في الآذان.

أما وسائل الموسيقى، فنقول:

ولقد تُساعد على موسيقى الأسلوب عدة عوامل:

أولًا: منها انسجام الحروف، وحلاوة جرسها، وائتلاف الكلمات، وتلاؤم فقرها، وإيقاعها، فتطول الجملة وتقصر طوعًا لحركة الفكر، وحالة العاطفة، فعاطفة السرور تقتضي الإبطاء، وعاطفة الغضب تقتضي الإسراع والتدفق، وخطبة المحامي وهو يدلل، ويطبق القانون غير خطبته وهو يستميل القضاة، ويستدر إشفاقهم، وخطبة السياسي وهو يناقش نصوص معاهدة، أو برنامج حكومة غير خطبته وهو يثتثير الجمع.

ثانيًا: من العوامل التي تساعد على موسيقى الأسلوب، السجع، فقد حلا السجع والازدواج في بعض الخطب، ما دام بريئًا من التكلف، كما ترى كثيرًا فـي خطب الإمام علي، قال أبو هلال: لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجًا، ولا تكاد تجد للبليغ كلامًا يخلو من الازدواج، وقال : واعلم الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب : هو أن تجعلها مزدوجةً فقط، ولا يلزمك السجع فيها، فإن جعلتها مسجوعةً كان أحسن، ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد، وإذا كان السجع عفوًا، أو لا أثر فيه للتكلف والتعمل؛ كان له وقع حلو في الأذن وسلطان على النفس.

واعلم أن السجع لو كان عيبًا؛ لكان كلام الله معيبًا؛ لأنه مسجوع كله ذو فواصل وقرائن، وأكثر خطب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسجوع، كقوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «إن مع العز ذلًّا، وإن مع الحياة موتًا، وإن مع الدنيا آخره، وإن لكل شيء حسابًا، ولكل حسنة ثوابًا، ولكل سيئة عقابًا » فأكثر هذه الكلام مسجوع كما تراه، وكذلك خطبه الطوال كلها.

فأما قولهم: إن السجع يدل على التكلف، فإن المذم وم التكلف الذي تظهر سماجته وثقله للسامعين، فأما التكلف المستحسن فأي عيب فيه، ألا ترى أن الشعر نفسه لا بد فيه من تكلف إقامة الوزن؟ وليس لطاعنٍ أن يطعن فيه بذلك؟ وأما قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن استنكر حكمه في الجنين بغرة، وقال : " أأدي من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، ومثل هذا يطل "، قال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «أسجع كسجع الكهان» فإنما أنكر ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه هنا السجع الذي يسجع الكهان أمثاله؛ ليموِّهُ به علي الناس، وهو يريد أن يؤكد تحريم العمل بأقوال الكهان، والخضوع لكلامهم وأحكامهم، والأمثلة كثيرة على شيوع السجع في الخطب.

خامسًا: من خصائص الأسلوب الخطابي: القياس المضمر:

يكثر القياس المضمر في أسلوب الخطبة، وهو قياس حذفت إحدى مقدمتيه، مثل : هذا الرجل مجد، فهو ناجح، حذفت المقدمة الكبرى، وهي : كل من يجد ينجح، ومثل : كل المعادن تتمدد بالحرارة، فال نحاس يتمدد بالحرارة حذفت المقدمة الصغرى، وهي والنحاس معدن، ولعل السبب في شيوع هذا الأسلوب في الخطابة؛ أن الخطيب يخشى أن يناقش السامعون المقدمة المحذوفة؛ فيسقط أو يضعف دليله الخطابي؛ أو لأنه يعتمد على ذكاء السامعين، وبديهتهم في إدراك المقدمة المحذوفة، والرب ط بين المقدمتين، أو أنه

يغالط السامعين بأن يوحي إليهم ويلزمهم، بأنهم موقنون بصحة المقدمة المحذوفة؛ لأنها حقيقة يجب أن يسلموا بها على أن المقدمة قد تحذف؛ لأنها معلومة فلا مدعاة لذكرها، أو لإثباتها، فالمستمع يعلمها ويقدرها بداهةً كأن نريد مثلًا أن نستنتج أن فريق الكرة نال الكأس فيكفي أن نقول إنه تفوق على منافسه في اللعب لأنه لا فائدة في قولنا: إن المتفوق ينال الكأس إذ أن ذلك معلوم بالعرف والعادة، هذا القياس المضمر أصلح للخطابة، كما قرر أرسطو في قوله: لا شك أن المنهج في الخطابة يستند إلى الأدلة والدليل برهنة؛ لأننا إذا قبلنا دليلًا من الأدلة؛ افترضنا أنه فرغ من البرهنة عليه.

ومن ناحية البرهنة الخطابية هي القياس المضمر، والقياس المضمر هو أرقى الأدلة وأفضلها، وهو نوع من القياس العام، ولكن ذلك لا ينفي أن القياس الكامل قد يوجد في الخطبة، فمثلًا: خطب أبو جعفر المنصو ر بعد قتله أبا مسلم فقال : "إن من نازعنا عروة هذه القميص أجزناه خبيء هذا الغمد، وإن أبا مسلم قد بايعنا، وبايع الناس لنا على أنه من نكس بنا؛ فقد أباح دمه. ثم نكس بنا، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا.

والقياس الكامل: هو كل من غدر بنا قتله أبو مسلم، وأبو مسلم غدر بنا فهو يستحق القتل.

ومن القياس المضمر الذي حذفت فيه المقدمة الكبرى، قول داود ابن علي في بني أمية لما سقطت دولتهم: تبًّا تبًّا لبني حرب بن أمية وبني مروان ركبوا الآثام، وظلموا الأنام، وانتهكوا المحارم، وغشوا الجرائم، فأتاهم بأس الله بياتًا وهم نائمون، فالقياس هنا عصوا الله فأهلكهم، والمقدمة الكبرى وهي كل من عصى الله أهلكه، هذه المقدمة محذوفة؛ لأنها مفهومة معلومة.

ومن أمثلته أيضًا قول الحارث بن عبد الرحمن الغفاري، في وفد الشام يعتذر إلى المنصور بعد هزيمة عبد الله بن علي: فإن تعاقبنا فبما أجرمنا، وإن تعفو عنا فبفضلك علينا".

وكذلك داود بن عيسى في خطبته يدعو إلى خلع الأمين : قد علمتم وعلمنا أن محمد بن هارون قد بدأ بالظلم والبغي والغدر، وخالف الشروط التي أعطاها من نفسه في بطن البيت الحرام، وقد حل لنا ولكم خلعه من الخلافة.

سادسًا: من خصائص الأسلوب الخطابي كذلك: التصرف في فنون القول:

من الأوصاف التي يجب أن يتصف الأسلوب الخطابي، التصرف في فنون القول بمعني أن يعبر الخطيب عن المعنى الواحد بتعابير مختلفة، من تقريرٍ إلى تعجبٍ إلى تهكمٍ إلى نفيٍ؛ وذلك لكي يكسب كلامه جِدَه، ولئلا يذهب نشاط السامعين، ويعتريهم السأم والملل.

فعلى الخطيب أن يغاير في أسلوبه، ويكرر المعاني بأساليب مختلفة فاللغة العربية غنية بالألفاظ، متشعبة الأساليب، وفيها من طرائق الحقيقة والتشبيه وغيرها ما يسد الحاجة، ويمد الخطيب بما يحتاج إليه من فنون القول، وأنواع التعبير، والنفس البشرية بطبيعتها ترفض الاستمرار على حالٍ واحدة في مختلف شئون حياتها، وتتطلع دومًا إلى التغيير والتبديل؛ تخلصًا من السآمة والملل.

فقد جبل الإنسان على الملال من الاستمرار على شيء واحد، فكلما انتقل من أسلوب إلى أسلوب انشرح صدره، وتجدد نشاطه، وتكامل ذوقه ولذته، وصار أقرب إلى فهم معناه، والعمل بمقتضاه، وكان كمن انتقل من بلد إلى بلد، أو من بستان إلى بستان، أو من فاكهة لذيذة إلي أخرى، وفي ذلك ما فيه من ترويح النفس وتنشيطها.

قال أبو علي القالي : التفنن موجب لإيقاظ السامع، وتحريكه للجد في الإصغاء، فإنّ تغير الكلام المسوق لمعنًى من المعا ني، وصرفه عن سننه المسلوك ينبِّئ عن اهتمام جديد بشأنِه من المتكلم، ويستجلب مزيد رغبةٍ فيه من المخاطب.

وهكذا يجب على الخطباء خاصة أن يراعوا خصائص الأسلوب الخطبي، وأن يصوغوا خطبتهم في هذا القالب، الذي من شأنه أن يوصل المعنى للمخاطبين، وأن يحملهم على ما يريد لهم الخطيب من الخير.

كيفية إعداد الخطبة

١- تمهيد عن الخطبة وإعدادها:

إن مما لا شك فيه أن الأمر العظيم يحتاج إلى تخطيط وإعداد، ويحتاج إلى جهد يُبْذَل، ووقت يُعَدّ فيه؛ حتى يكون على قدر المقام الذي وُضِعَ له، وما من شيء في هذه الحياة إذا أريد له أن يكون جيدًا وعلى مستوى، إلا ويحتاج إلى إعداد واستعداد، والقاعدة: أنه لا بد من الأخذ بالأسباب إذا أردت أن تصل إلى شيء ما، فلا نجاح دون مذاكرة، ولا حصاد دون زرع، ولا انتصار دون أخذ العدة والتخطيط لهذا النصر، بل إنك لن تأكل ولن تشرب إلا إذا بذلت جهدًا ووقتًا في البحث ع ن الطعام والشراب والإعداد لهما، حتى الرسالات السماوية لم يكن تكليف المولى - عز وجل- الرسل بها إلا بعد إعدادهم إعدادًا كاملًا؛ فها هو موسى -عليه السلام- حين قال له ربه سبحانه وتعالى : {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [النازعات: ١٧] يرد على مولاه بقوله : {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي } [طه: ٢٥-٢٩] فهو بهذا يطلب من ربه أن يلهمه الاستعداد لدوره بعد فهمه له، وأن يجعله قادرًا على تحمل هذا الدور الذي يحتاج إلى تخطيط؛ حتى يتمكن من إبلاغ الرسالة وهو منبسط النفس مستسهل تنفيذ الأمر.

والخطبة - كما قلنا، ونقول- عند من يُقَدِّر أهميتها من المسائل الصعبة الخطيرة، ويستشعر ذلك أيضًا كلُّ من مارس الخطابة عمليًّا وواجه الناس في يوم ما، يقول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: ما يتصعدني كلام كما يتصعدني خطبة النكاح.

قِيلَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرَوَانَ: عجل عليك الشيب يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: كَيْفَ لَا يَعجل علي وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين.

والمقصود بإعداد الخطبة هو التهيئة والتحضير، ولا بد من ذلك ليبرز المعنى، ويتضح المغزى، ويؤثر الكلام، وكما تُهَيَّأ الخطبة وتُحَضَّر ترتب المعاني، وَتُحَسَّنُ الألفاظ، وتبنى النتائج على المقدمات، فَنَصِلُ إلى ما نرجوه في الخطبة، وما نبغيه من وراء إلقائها.

يقول الجاحظ: إن المعنى إذا اكتسى لفظًا حسنًا، وأعاره البليغ مخرجًا سهلًا، ومنحه البليغ قولًا مُتَعَشَّقًا صَارَ فِي قَلْبِكَ أحلى، ولصدرك أملى، والمعاني إذا كسيت حسن الألفاظ الكريمة وألبست الأوصاف الرفيعة، تحولت في العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق، أقدرها بقدر ما زينت، وعلى حسب ما زخرفت، فاذكر هذا الباب ولا تفرط فيه.

وإعداد الفكرة والمعنى لا بد من أن يمر بمراحل متعددة؛ حتى تظهر الخطبة بصورتها اللائقة بها، وإعداد الفكرة يبدأ أولا بمرحلة اختيار الموضوع، وتحديده في العقل، والاقتناع به، والرضا عنه، وهذا يمثل المرحلة الأولى والهامة من مراحل الخطبة، ثم بعد ذلك يبدأ المتحدث في تحليل الموضوع الذي وقع الاختيار عليه لعناصره الأساسية، واختياره أدلته وتنسيق هذه الأدلة. وهذه تمثل المرحلة الثانية.

ثم بعد ذلك تأتي المرحلة الثالثة، وهي صياغة المعاني والأدلة في قالب بيانيٍّ فصيح وأسلوب بليغ، يتناسب مع المستمعين، وإذا كان المتعود على الخطابة يسهل عليه صياغة معاني الموضوع الذي وقع اختياره عليه دون جهد جهيد، فإنه لا يستطيع أبدًا أن يترك نفسه حتى يصعد المنبر، أو يقف أمام الجمهور دون أن يحدد الموضوع تحديدًا جيدًا، ويحلل عناصره ويسوق أدلته، وإلا فسيقول كلامًا لا طعم له ولا لون ولا رائحة، ولن يرضي أحدًا، بل حتى لن يرضى هو عن نفسه حين يفعل ذلك، وإن لم يحس بذلك انطبق عليه قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت».

ولذا فإن العلماء يرون أن هذه المراحل الثالث ضرورية للخطبة، ولا تفضل مرحلة غ يرها في الأهمية، وجميعها يتضافر في تقديم خطبة جميلة متماسكة، تصل لهدفها وتأثيرها؛

يقول ابن المعتز : إن البلاغة بثلاثة أمور؛ أن تغوص لحظة القلب في أعماق الفكر، وتتأمل لوجوه العواقب، وتجمع بين ما غاب وما حضر، ثم يعود القلب على ما أعمل الفكر، فيحكم سياق المعاني وا لأدلة ويحسن تنفيذها، ثم تبديه بألفاظ رشيقة، مع تزيين معارضها واستعمال محاسنها.

ويلاحظ أن إعداد الفكرة والمعنى لا يكفي فيها مرورها بهذه المراحل الثلاثة، دون مراعاة للزمان والمكان والمستمعين؛ فالبلاغة أن تخاطب الناس على قدر عقولهم، وبالكلام المفيد لهم، ولذا يقول الشيخ علي محفوظ: من أراد العظة البليغة والقولة المؤثرة فليعمد إلى المنكرات الفاشية، ولا سيما ما كان منها قريب العهد وحديثه على ألسنة الناس، أو زائعًا في الصحف، ثم يقدم من هذه الوقائع أكبرها ضررًا أو أسوأها أثرًا، فيجعله محور خطابته، وموضع عظته، ثم يفكر في ما ينشأ عن هذا الحادث أو المنكر من الأضرار الخلقية والاجتماعية والصحية والمالية، ويحصي هذه المضار في نفسه أو بقلمه، ثم يستحضر ما جاء فيه من الآيات والأحاديث الصحيحة وأثار السلف الصالح، ثم يأخذ في كتابة الموضوع - إن شاء كتابته- مضمنه ما فيه من تلك المض ار، وما ورد فيه عن الشارع، محذرًا من الوقوع فيه حاثًّا على التوبة منه . هذا إذا أراد الإقلاع عن جريمة أو التنفير عن رذيلة.

فإذا أراد الحض على عمل صالح أو مشروع نافع، أو أراد الحث على خلق فاضل فليفكرْ في مزاياه وأثاره الحسنة تفكيرًا عميقًا، وليستحضر ما يناسب ه من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، ثم يسلك في الكتابة المسلك الذي بينا متجنبًا السجع المتكلف، والمحسنات الثقيلة التي كثيرًا ما تخفي الأغراض وتحجب المعاني؛ أما مراحل الإعداد بالنسبة للخطبة، فقد قسم أهل العلم الإعداد بالنسبة للخطبة إلى أربع مراحل:

المرحلة الأولى : مرحلة الاختيار - أي اختيار موضوع الخطبة- المرحلة الثانية : مرحلة تركيب عناصر الخطبة . المرحلة الثالثة : مرحلة اختيار الأدلة . وأما المرحلة الرابعة والأخيرة: فهي مرحلة التعبير البياني.

وإذا كنا نركز على هذه المراحل ونبين تفصيلات كل مرحلة منها؛ فإننا بذ لك نؤكد على أهمية الإعداد للخطبة وضرورة هذا الإعداد، ولعلنا نحس تخلفًا واضحًا في الخطابة الدينية والوعظ الديني في هذا العصر، ويرجع ذلك في الأساس لإهمال الإعداد عند الخطباء وعدم الاهتمام بتحضير خطبهم، ولا يستغني خطيب - أيًّا كان ومهما كان- عن إعداد الخطبة وتهيئتها، وكبار الخطباء يهتمون بخطبهم، ويتخيرونها بدقة، ويعدونها إعدادًا علميًّا كاملًا، وهذا هو السبب الرئيسي في نجاحهم وتأثيرهم، وبالتالي شهرتهم وتردد أسمائهم على ألسنة الجماهير . ونأتي الآن إلى الحديث عن كل مرحلة من هذه المراحل بصورة تفصيلية...

- المرحلة الأولى من مراحل إعداد الخطبة؛ مرحلة إعداد موضوع الخطبة:

المرحلة الأولى: اختيار موضوع الخطبة؛ حين يفكر الخطيب في إلقاء خطبة، أو يُطْلَب منه ذلك، فإن عليه أولًا أن يلجأ إلى نفسه، وأن يفرغ عقله إلا من التفكير والبحث عن الموضوع الذي يتناسب مع الزمان والمكان والجمهور الذي سيلقي فيه الخطبة، ولا بد أن يراعي هذه الأمور مراعاة تامة وكاملة؛ لأن ما يناسب التهنئة مثلًا لا يناسب العزاء، وما يقال في الصلح غير ما يقال في الجهاد، وخطبة الأعياد والمناسبات الدينية غير الخطب التي تقال في الأيام العادية.

كما أن الموضوع الواحد يلقى بطرق متنوعة متعددة، وما يثير الناس اليوم لا يثيرهم غدًا تبعًا لتغير الموقف والحال، فليست الخطب - كما قلنا، ونقول دائمًا- مجرد كلمات تحفظ وتلقى، ويدور معظمها -كما هو واقع هذه الأيام- حول الدنيا وذمها والتزهيد فيها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعبارا ت مجملة، لا تعالج من أمراض النفوس شيئًا، ولا تصل إلى أعماق القلوب، وبعضها -وللأسف الشديد- يخلط الأوامر بالنواهي، ويجمع بين

أمور كثيرة، لا يستوفي الكلام على واحدة منها، فيحذر من ترك الصلاة وشرب الخمور والزنا والربا، وما إلى ذلك من المنكرات، كل ذلك في خطبة واحدة، بل إن الناس يسمعون من الخطيب اليوم نفس ما سمعوه بالأمس، ويسمعون نفسه غدًا، وما يلقى في هذا العام يدور في العام التالي، دون مراعاة الخطيب لمقتضى الحال، وإصلاح السامعين على قدر ما فيهم من الشر والفساد، دون تفرقة بين المتعلم والجاهل أو الصغير والكبير.

ولذا فإن اختيار الموضوع يتحتم أن يوضع في إطاره العلمي الصحيح، وتحديد هذا الموضوع لا بد أن يتم وفق اعتبارات موضوعية معينة، ولا بد أن تتناسب الخطبة مع المستمعين، فالناس يتأثرون ببيئتهم وثقافتهم، وهنا وجب أن ينبني هذا الاختيار لموضوع الخطبة على عدة اعتبارات؛ منها مثلًا: أولًا: نفسية المخاطبين؛ فالخطيب الذكي هو الذي يعرف كيف يتعامل مع جمهوره، وكيف يؤثر فيهم بعظاته وخطبه، فلا بد أن يعرف أنه يخاطب بشرًا، وأنهم لذلك يتأثرون بعدد من المؤثرات؛ بعضها فطري، وبعضها مكتسب، وهذه المؤثرات تدفعهم إلى سلوك معين وتجذبهم نحو غ اية معينة، وأن بعضًا من هؤلاء الناس قد يتصرفُ تصرفاتٍ معينةً نتيجة لهذه المؤثرات، بل يصل الأمر إلى تمسك الكثيرين بفكرته، ويستطيع أن يرد على انتقادات الناس الموجهة إليه، وهنا فإن الخطيب الناجح يجب أن يعرف هذه الأمور، ويراعيها؛ خاصة بعد أن يلاحظ العوامل التي تحدث الاتجاهات العامة، وتؤثر في نفس الأفراد وتنميها.

ومعروف أن الاتجاهات الفردية صورة لاتجاه الجماعة بشكل عام، وهذه العوامل قد حصرها علماء النفس الاجتماعي في: "البيئة والوراثة وإمكانية الشخص نفسه"، وعلى الخطيب أن يفهم ذلك جيدًا قبل إلقاء خطبته وموعظته، ويراعي عدم التصادم المباشر مع الاتجاهات السائدة، ويركز علي القضايا المؤثرة في المستمعين، ومن هنا يأتي اختيار الخطيب لموضوع الخطبة متفقًا مع نفسية المستمع، مراعيًا ظروف المستمعين وأحوالهم، وهنا كان لا بد من أن يختلف الموضوع في القرية مثلًا عن المدينة، وفي العمال غير المثقفين وبالعكس، ولا شك أن ملاحظة هذا الجانب النفسي يؤدي إلى اختيار الطريقة الصحيحة لتقديم الموضوع؛ لأن الطريقة التي تُقَدَّمُ بها المعلومات إلى الأفراد ذات أثر بالغ في التأثير وتعديل الاتجاه.

وهنا فإنه بالإمكان أن نتخيل خطيبًا يخطب في أهل المدينة ، ويبين في خطبته طريقة مقاومة الآفات الزراعية، وخطيب آخر يخطب في أهل القرية عن شرب الخمر، فلا شك أن هذين الخطيبين قد جانبهما الصواب، على خلاف ما إذا رأينا خطيبًا يخطب في القرية عن طريقة مقاومة الآفات الزراعية، أو خطيبًا يخطب في الطلبة عن وسائل النجاح، ففي هذه الحالة ينجح الخطيبان؛ لأنهما لامسا حاجة الجمهور، وركزا على اتجاهاته، ويساعد الخطيب على إدراك هذه الاتجاهات معارفُه الشخصية، وسعة أفقه، ومعرفته بعلم النفس وعلم الاجتماع.

ثانيًا: عقلية المخاطبين؛ لا بد أن يراعي الخطيب عقلية المخاطبين، فهو إذا تمكن من اختيار الموضوع المفيد نتيجة إحاطته باتجاهات الأفراد النفسية، فإنه لا شك سيتمكن من اختيار نوع الدليل ومستوي الأسلوب الذي يتناسب مع المستمعين إن أحاط بعقليتهم، وعرف إمكاناتهم العقلية، ومدى ما تتحمله عقولهم من أدلة وبراهين؛ وقد روي عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- مرفوعًا قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «أمرنا نحن معاشر الأنبياء أن نخاطب الناس على قدر عقولهم».

ولا شك أننا نتبع الرسول - صلى الله عليه وسلم- في مخاطبة الناس على قدر عقولهم والإلقاء إليهم بالكلام الذي تفهمه وتدركه هذه العقول، وقد قسم الألوسي عقول الناس إلى ثلاثة أقسام؛ فقال : إن الناس ذوو عقليات ثلاثة؛ فطائفة منهم : أصحاب نفوس مشرقة قوية الاستعداد لإدراك المعاني، قوية الانجذاب نحو المبادئ العالية، مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه، وهؤلاء هم أصحاب العقل الراقي في الناس.

وطائفة ثانية : هي عوام الناس الذين يملكون نفوسًا كدرة، ضعيفة الاستعداد للمعاني، شديد الإلف بالمحسوسات، قوية التعلق بالرسول والعادات، قاصرة عن درجات البرهان، وهؤلاء قوم يستثارون بسهولة، ولا عناد عندهم.

وطائفة ثالثة : معاندة مجادلة للباطل، تقصد جحد الحق، لما غلب عليها من تقليد الأسلاف، ورسخ فيها من العقائد الباطلة، ليس من العقل والحكمة أن يأتي الخطيب بأدلة وبراهين أكبر من مستوى عقول المستمعين، وليس من اللائق أن يخاطب الأمي بما لا علم له به، ولا اهتمام عنده به؛ كأن يحدثه عن القمر الصناعي مثلًا أو عن أجهزته الدقيقة وأجزائه الدقيقة، أو غير ذلك من الأمور التي لا تعنيه، أو أن يملأ ذهنه بالكليات المركبة، أو يلقي عليه تشبيهات وأمثالًا لم يسمع عنها، وليست من واقع بيئتهم، وإنما يجب أن يكون الدليل مبسطًا، والتعاريف بالعرض المحسوس، والتشبيهات والأمثال ينبغي أن تكون من واقع بيئته.

أما إذا كان يخاطب المثقفين فعليه أن يرتفع بمستوي الذي يخاطبهم به، ولا مانع من أن يسلسل العناصر لهم، وأن يأتيهم بالتشبيهات والأمثال؛ لأن متابعة التسلسل سهل عندهم، وقد يكون الغوص في المعاني من دأبهم وديدنهم، كما أنهم كثيرًا ما يسعدون بأسلوب يحلق بهم في عالم الجمال، ويقرب لهم المحسوس، ويملأ بيانه بالمحسنات المختلفة، والاستعارات الكثيرة، وعلى كل حال فإن الإحاطة بعقلية الأفراد تسهل للخطيب النجاح، وتوفر عليه العناء والتعب، ونقد الناقدين.

ثالثًا: ملاحظة المناسبة؛ تصور أن رجلًا قام يخطب في حفل عرس، وجعل موضوع خطبته {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} أو وقف يخطب بين المُعَزِّين فأخذ يتحدث في موضوع سياسي؛ كالحرب بين إنجلترا والأرجنتين، أو مشكلة الحدود بين روسيا والصين؛ لا شك أن هذا الخطيب أخطأ خطأً فادحًا حين لم يراعِ المناسبة، ولم يلتفت إلى تناسب الحدث مع موضوع خطبته؛ ولذا فلا بد أن يراعي الخطيب مناسبات الناس وألا يبتعد عنهم؛ فلا بد للجمهور أن يجد قولًا يتصل بيومه وحياته حتى ينتبه إليه، بل إن فاته من هذا المقال شيء سأل عنه إشباعًا لنفسه التي أثارها هذا المقال، والمناسبات كثيرة، منها : الوطنية، والشخصية، والدينية، وتتغاير الخطب بقدر تغاير المناسبات، كما أن خطبة العيد تختلف عن خطة الجمعة، وخطبة التهنئة تختلف عن خطبة العزاء، والخطيب ينبغي أن يحيط بهذه المناسبات؛ حتى يساير وفكرهم بهذه الإحاطة، وهكذا شاءت إرادة الله - عز وجل- وحكمته أن ينزل القرآن الكريم - دستور هذه الحياة- متناسبًا في كل آ ية وسورة مناسبًا لواقع الناس ومصالحهم، ولذا خلدت به النفوس والعقول، وعاش في فكر الناس وخلدهم؛ لا لمجرد أنه وحي السماء وكلام الله تعالى الذي يتعبد بتلاوته، وإنما لأنه - مع ما سبق- يشتمل كل ما يحتاج إليه الناس لدينهم ودنياهم، ويتناسبُ مع حياتهم ووجودهم، هذا ع ن المرحلة الأولى، وهى مرحلة اختيار موضوع الخطبة.

٣- المرحلة الثانية؛ مرحلة تركيب عناصر الخطبة:

نأتي إلى المرحلة الثانية، وهي مرحلة تركيب العناصر؛ عرفنا أن المرحلة الأولي من مراحل إعداد الخطبة هي : خلق موضوع الخطبة واختيار الموضوع المناسب الذي يتفق مع نوعيات المستمعين، على أن يراعي الخطيب نفسية المخاطبين وعقليتهم، وتناسب الموضوع مع الزمان والمكان والمناسبة التي تُلْقَى فيها هذه الخطبة، والمرحلة التالية لخلق أو اختيار موضوع الخطبة هي مرحلة تركيب العناصر.

فلا بد من تقسيم العناصر وتركيبها حين نفكر في إعداد الخطب ة، كما يتحتم حين نحدد العناصر أن نفصل الدليل مع كل عنصر، وقد سمى ابن سينا هذه المرحلة بالعمود؛ لأنها الأساس المتين في الخطبة، وعليها المعول الأكبر في الترتيب والتنسيق، وعلى الخطيب أن يحدد عناصر خطبته، ويميز كل عنصر على حدة، على أن يجعل العناصر كلها تتفق وتدور حول موضوع واحد، ويستحسن أن يوجز الخطيب هذه العناصر في كلمات قصار؛ لكي تدوم معه، ويتمكن بعد دوامها من جمع الأدلة المناسبة لكل عنصر، والذي يعين الخطيب في تعيين عناصر موضوعه : الرجوع إلى المراجع العلمية، والقراءة فيها قراءة مستوعبة، هذا بالإضافة إلى عرض الفكرة وعناصرها على عقله، وسيصل الخطيب إلى هدفه سريعًا حين يتضح أمامه الهدف من الموضوع كله، وسيعينه تدربه على هذا، وذاكرته القوية التي قويت بالمران والممارسة، ويجب أن تكون العناصر مترابطة مسلسلة؛ بحيث يرتبط كل عنصر مع صاحبه، بلا خلل أو بعد عن الموضوع، ولذا ف عليه ألا يستطرد أكثر مما ينبغي؛ حتى لا يخرج عن الموضوع ويبتعد بالسامعين عن التركيز في خطبته وعمومًا فإن الاستطراد خير مستحب في الخطبة.

٣- المرحلة الثالثة؛ مرحلة اختيار الأدلة:

أما المرحلة الثالثة : فهي اختيار الأدلة : بعد أن يستقر الخطيب على موضوع معين لخطبته، ويقسم الخطبة إلى عناصرها الأساسية يأتي دور البحث عن أدلة والبراهين التي تعين الخطيب على بيان موضوعه وإفهام المستمعين وإقناعهم بما يقال، وهذا يحتاج إلى تحديد نوعية المصادر التي تفيد كل موضوع؛ فمثلًا: مصادر الخطبة الدينية أساسها الكتب المقدسة، بالإضافة إلى كتب السنة وكتب الفقه وكتب الثقافة الإسلامية عمومًا . وما دار حول ذلك من دراسات واجتهادات خاصة بالعلماء، على خلاف السياسية التي قد لا تحتاج لكل هذه المصادر والتي تختلف مصادرها عن مصادر الخطبة القضائية، أو المحفلية أو غير ذلك من أنواع الخطب التي ذكرها العلم اء، وإن كنت أرى أن هذا التقسيم للخطبة لا يصلح لهذا العصر في مجتمعٍ إسلامي، ولا يصح أن يكون في دولة الإسلام التي لا يمكن الفصل فيها بين ما يسمى دينًا وما يسمى دنيا، والتي نرى ارتباط جميع أمور الحياة بالعقيدة والدين.

ولا شك أن الأدلة التي يختارها الخطيب لموضو عه، منها : يتصل بالموضوع اتصالًا مباشرًا، ومنها ما يتصل به بطريق عرضي غير مباشر، ومع ذلك فإنه يجب على الخطيب حين يفكر في اختيار أدلته أن يراعي أراء أهل التخصص؛ لأن ذلك مما يقنع المخاطبين بسهولة، فلا شك أن أقوال الحكماء والأئمة مفيدة في بابها، وقد أصبح الاست شهاد بها ضروريًّا، وعلى الخطيب أن يستعين بها حتى يصل إلى غرضه؛ فالمحامي الناجح يستطيع أن يقنع القاضي ويستميل الجمهور إلى جانب الحق؛ إن استشهد بنصوص القوانين التي تلتزم بها المحكمة . هذا وعلى الخطيب أيضًا أن يراعي مواطن العقيدة في نفوس المستمعين؛ ليستشهد بها في خطبه، وينقل منها ومن نصوصها في أدلته، والدين هو محرك الوجدان، وموقظ الهمم، بل إن الناس المؤمنين بعقيدةٍ يضحون بالغالي والنفيس في سبيلها، ويندفعون في اتباع وتنفيذ كل ما يسمعون؛ إن أصاب منهم موطن إيمانهم بدين الله تعالى وحبهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- على وجه الخصوص.

والتدين مَيْل فطري في الإنسان؛ لأنه حاجة من حاجات نفسه، ونزعة داخلية لا يستطيع العقل أن يفسرها، ولا أن يقدم تحليلًا لمكوناتها، ولذا كان على الخطيب أن يحاول اكتساب هذه الميل في الإنسان إلي جانبه، وأن يهتم بهذا الشأن في الدليل حتى يحقق الإقناع واليقين، وعلى الخطيب المسلم أن يعرف أن القرآن الكريم والسنة النبوية يفيدان أسلوبًا وتأثيرًا؛ لما لهما من إعجاز وبيان، ولكونهما أكبر مصدرين دينيين يعتمد عليهما المسلمون جميعًا، وعلى الخطيب أيضًا أن يلاحظ تأثير العادات والآثار القديمة وقت إعداده للخطبة، وأن يضع ذلك في اعتباره وهو يختار أدلته؛ حتى يتمكن من التأثير وحمل الناس على ما يريده لهم.

كما يجب عليه أن يلاحظ أيضًا عند اختيار أدلته آثار السلف الصالح فهي مثل العادات في قوة التأثير؛ لأن الأحياء يتخذون أعمال سلفهم تَكِئَةً يعتمدون عليها؛ إن على الخطيب أن يراعي نوع الدليل الذي جاء به؛ ليستدل ويسترشد على صحة ما يقول، فإذا سقط الدليل

سقطت القضية عمومًا، وفشلت الخطبة حينئذ فشلًا ذريعًا، ولذا فقد عُرِّفَ الدليل في اللغة بأنه المرشد، وعرف في اصطلاح الحكماء بأنه ما يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، وهذا الدليل إما دليل قطعي، وإما دليل ظني، والدليل القطعي هو ما أوجب التصديق اليقيني، ويسميه العلماء برهانًا، وهو -كما قلنا- يوجب التصديق اليقيني.

يقول عنه العلماء - عن الدليل اليقيني- : إنه لا يُستعمل في الخطابة؛ فالأحوال الصادقة يقينًا لا تقع في الخطابة من حيث إنها خط ابة؛ فإن ألمَّ بها الخطيب فقد عدل بالخطابة عن أصلها، وما يصدق على الدليل القطعي يصدق كذلك على الدليل الظني، فهو أحد جزئي البرهان الذي قيل: إنه لا يستعمل في الخطابة، وإذا كان الدليل القطعي لا يُسْتعمل فالدليل الظني أولى بعدم الاستعمال، والدليل الظني هو ما أ فاد الظن فقط، ويتألف من غير اليقينيات.

٤- مرحلة التعبير البياني: نأتي الآن إلى المرحلة الرابعة من مراحل إعداد الخطبة، وهي مرحلة التعبير، ولعلنا لاحظنا أنه عند حديثنا عن الخطيب، وعما يجب أن يفعله لإقناع الجمهور أنه لا بد من اختيار اللفظ والعبارة، ومراعاة أن تكون الألفاظ التي يُعَبِّر بها عن موضوعه من الألفاظ السهلة المألوفة، التي يمكن للناس استيعابها وفهم مقاصدها، وضرورة أن يبتعد عن الألفاظ الوحشية الغريبة، وأن يحاول ما أمكن الاعتماد على المقاطع الواضحة القصيرة، خصوصًا بالنسبة لخطب العبادات، وأن يبتعد عن الس جع المتكلف، وهنا نضيف إلى ما سبق ضرورة الاهتمام الكامل بالتعبير الخطابي، والذي هو -كما قلنا- يمثل المرحلة الأخيرة من مراحل إعداد الخطبة، والتي لو أجيدت لكان ذلك دليلًا على جودة المراحل الثلاثة السابقة، ولو ضعفت فلا جودة لشيء بعدها، وهنا يجب أن نلاحظ أن التعبير هو مرحلة خاصة بالخطبة وحدها؛ لأن فن المقال والكتابة تصبح المرحلة الأخيرة فيه مرحلة تركيب، وليست مرحلة تعبير، ولذا فإن مرحلة التعبير مرحلة مستقلة، وهي خاصة بالخطبة حين تقوم بصنع دور الملاءمة بين الخطبة و موضوعها ومقامها التي ستلقى فيه.

وهذه الملاءمة تفوض مغايرة بين التعبير الخطابي و غيره من فنون المقال، ولذا اختصت الخطابة بهذه المرحلة، والتعبير الخطابي في حاجة إلى جمال الأسلوب واختيار اللفظ ذي الموسيقى الذي ينبني على الفصاحة والبلاغة، مع مراعاة إيمان الخطيب بالتكرار والتأكيد، ومعرفة الاستشهاد الصوتي وال تزامه التمثيل الصوتي والتعبير بالحركة، مع مراعاة حال المستمعين وأفهامهم، بمعنى أن يكون اللفظ واضحًا لا غموض فيه ولا لبس، ومن السهل إدراك معناه والوصول إلى مرماه، وألا يكون من الغريب الذي يعلو على مداركهم، ويكفي أن يلاحظ أن الغرض من الخطبة التأثير والإقناع وإثارة الوجدان، ولا يكون ذلك إلا بما هو مفهوم للمستمع، وما هو مأنوس الاستعمال عنده، ويجب أن يراعي الخطيب عند التعبير عدمَ اختيار الألفاظ المبتذلة، وألا ينزل بتعبيره إلى درجة العامية فيذهب رواء خطبته، ويضيع جلال معانيها؛ كأن يقول مثلًا : "أتعشم" بدلًا من "أرجو"، أو يقول : " آمل" أو "أطمع" أو يستعمل لفظ "أفتكر" بدلًا من "أتَفَكّر أو أفكر أو أتأمل"... إلى آخره، وإن كان هذا قد شاع وللأسف الشديد على ألسنة بعض خطبائنا، وهذا -ولا شك- دليل الضعف؛ حيث لا يستطيعون انتقاء ألفاظ خطبهم من غير أن يغربوا ويبتعدوا عن المفهوم المألوف.

واستعمال العامية المبتذلة مع من يفهم الفصحى خطأ كبير، وإن كان لا يمنع أحيانًا استعمال الخطيب لبعض الألفاظ العامية مع عوام الناس عند الضرورة منها؛ لتبيين فكرة أو توضيح معنى، وعلى ألا يغلب ذلك على خطبته؛ يقول بشر بن المعتمر في وصاياه للخطيب: فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك أن تُفْهِمِ العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسعة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام.

طريقة إلقاء الخطبة، وما ينبغي أن يتوفر فيها

إن الخطبة الناجحة القوية المؤثرة، تع تمد في نجاحها، وفي قوة تأثيرها على ركيزتين هامتين:

الركيزة الأولى: حسن الإعداد، وقد تحدثنا عنه قبل ذلك.

وأما الركيزة الثانية: فهي جودة الإلقاء، وعليه، فلا توجد خطبة ناجحة مؤثرة بدون توفر هذين العاملين معًا: حسن الإعداد، وجودة الإلقاء.

ولا يستغنى بأحد هذين العاملين عن الآخر؛ فالخطبة إذا أحسن إعدادها، ولم يهتم بإلقائها؛ تصبح ضعيفة غير مؤثرة، كذلك إذا لم تعد إعدادًا حسنًا واهتم بإلقائها، هنا، تقع جودة الإلقاء على خطبة مهلهلة، غير واضحة الأفكار ولا العناصر ولا المعالم؛ فتخرج ضعيفة غير مؤثرة، ومن ثم، فلا بد من ا لاهتمام بجودة الإلقاء، مع الاهتمام قبل كذلك بحسن الإعداد، وبهما تخرج الخطبة قوية، مؤثرة، ناجحة، مؤدية الغرض الذي صيغت من أجله، ومن هنا، فلا بد من الاهتمام بجودة الإلقاء، فهو العامل الثاني لنجاح الخطبة، وقوة تأثيرها في الناس.

إن الأشياء البسيطة كثيرًا ما تع رض في أغلفة أو ظروف، تم اختيارها من مادة جيدة، ووقع إدراج تلك الأشياء فيها بعناية وذوق؛ فكان لتلك الأغلفة والظروف من الجاذبية ما يجعل قيمة الشيء المعروض فيها أرفع مما لو لم يعرض فيها، أو لم يكن وضعه فيها بتلك العناية وبذلك الذوق، وتنطبق هذه الحقيقة على الك لام نفسه فكم من الكلام كان ذا معنى مألوف، أو حكم معروف، ولكن المتكلم به يكسوه من صفاء صوته، ورونق نبراته، ما يأخذ المستمع بنشوة إلى المستطرف لشيءٍ لم يكن يعرفه من قبل.

ومن هذه الحقيقة ندرك الفرق بين خطيبين : خطيب يسرد الخطبة بنغم لا يتبدل من بدايتها إلى نهايتها، أو يكاد لا يتبدل، وخطيب تتنوع تموجات صوته تبعًا لما يحمله التعبير من مختلف المعاني. فالأول: شبيه كل الشبه بتلميذ يقرأ درسًا من كتاب مدرسي، أما الثاني : فهو متمتع بحظ وافر من جودة الإلقاء المطلوبة في كل خطيب.

وكم من خطبة ألقاها خطيبٌ ملمٌّ بفن الإلقاء، فكان لها في نفوس السامعين أبلغ الأثر، فإذا نشرتها أحد المجلات ظهرت قيمتها وهي مقروءة، أدنى كثيرًا من قيمتها التي كانت لها وهي مسموعة؛ وليس ذلك إلا لما كساها من جمال نبراته المتمثلة في حسن إلقائه.

ولكن، هل كان الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يهتم بفن الإلقاء، عندما كان يدعو إلى الله تعالى؟ إن الذي يدرس كتب السيرة النبوية؛ يجد أن الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حين كان لا يزال بمكة، دخل المسجد الحرام، وهو ممتلئ بالناس من قريش، جالسين في حلقات، تضم كل حلقة طائفة من قبيلة، فتوسط هذه الحلق ات، وجلس في بضعة من أصحابه، ثم أخذ يقرأ سورة النجم، وأخذت هذه الطوائف - التي ما زالت على جاهليتها- تنصت إليه، وتقترب منه، مأخوذة معجبة، حتى انتهى في السورة إلى السجدة التي في آخرها؛ فسجد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وسجد أصحابه، ولم يتمالك الكثيرون م ن الكافرين أنفسهم، فسجدوا وهم لا يشعرون، حتى انتبهوا فعادوا إلى عنادهم وهم يصخبون ويتهمون الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالسحر.

والحقيقة أنه سحر بلاغة الكلام - كلام الله تعالى- وبلاغة الإلقاء . وإنما نجزم ببلاغة الإلقاء؛ لأننا نعلم أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان حسن الصوت في حديثه كله، وأنه كان يعلم ويوضح ويساعد المعنى والإلقاء ببعض الإشارات التي تزيدها بيانًا، ويؤيد ذلك ما رواه الإمام مسلم في "صحيحه" من حديث الأعمش يرفعه إلى حذيفة، وهو يصف صلاته ذات ليلة مع رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ويصف قراءة الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيقول: «يقرأ مرسلًا -أي: متمهلًا- إذا مر بآية فيها تسبيح؛ سبح، وإذا مر بسؤال؛ سأل، وإذا مر بتعوذ؛ تعوذ ...» إلى آخر حديث حذيفة، ومعنى هذا : أنه يبرز معنى التسبيح بالصوت، وكذلك معنى السؤال، ومعنى التعوذ، ولكل حالة من هذه الحالات صوت يلائمها.

ومن هنا ندرك معنى قوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «زينوا القرآن بأصواتكم» وأن معنى التزيين لا يمت إلى التطريب بسبب؛ بل هو لا يخرج عما كان يفعله الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حين يقرأ، كما وصف حذيفة -رضي الله عنه.

المراجع والمصادر

١- الفيومي، المصباح المنير، ١/٢٠٠٠ المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٢١م.

٢- الأصفهاني، الراغب، المفردات، تحقيق: محمد سيد كيلاني، القاهرة ١٩٦٩.

٣- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، ١٩٠٢/٥، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، القاهرة ١٩٨٢م.

٤- ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٦٣ هـ.

٥- الكفوي، أبو البقاء ، الكليات: معجم المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٣م.

٦- التهانوي، محمد بن علي ، كشف اصطلاحات الفنون، تحقيق : لطفي عبد البديع ، القاهرة ١٩٦٣.

٧- الشرنوبي، أحمد محمد، الحكمة في ميدان الدعوة إلى الله تعالى، بحث منشور في حولية كلية أصول الدين القاهرة، جامعة الأزهر ٢٠٠٦م.

٨- القرضاوي، يوسف، ثقافة الداعية مكتبة وهبة، الطبعة الثامنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

٩- البيانوني، محمد أبو الفتح ، المدخل إلى علم الدعوة : مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

١٠- موسوعة نضرة النعيم، إعداد مجموعة من المختصين، بإشراف : صالح بن عبد الله حميد، وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن ملوح ، طبعة دار الوسيلة، السعودية، ٢٠٠٤م.

١١- أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق : عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٩م.

١٢- الإمام الجويني، الكافية في الجدل، تحقيق د. فوقية حسين محمود، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩م.

١٣- حسين عبد الرءوف ، فقه الدعوة الإسلامية ، القاهرة، ط أولى، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٧.

١٤- حسين خطاب ، ضوابط العمل الدعوي في مجالات : الموعظة، المجادلة، الحكم على الآخرين ، ص ٦٩، ٧٢، ٧٩، ٨٥ مكتبة الأزهر الحديثة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

١٥- اللحيان، عبد الله بن إبراهيم ، دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، مطابع الحميضي - السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.

١٦- زيدان، عبد الكريم، أصول الدعوة، دار عمر بن الخطاب الإسكندرية، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.

17- الشرنوبي، أحمد محمد، موقف الإسلام من أهل الكتاب، رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين القاهرة.